



الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1296—1393هـ/1879—1973)

بقلم : علي الشنوفي

كان الفقيه سماء الأستاذ العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور عالماً عاملاً
ثبتاً لا تحيط بتفصيل الحديث عن سيرته وشيمته إلا دراسة مطوّلة والحال يقتضي
الاختصار في نطاق هذا الاطار ، لذا نقتصر على ذكر أبرز مآثر هذا العلم علماً
وفقها وأدباً .

لقد امتدت أعراق الفقيد من حيث النشأة الأولى في صميم بيت سريّ حضريّ له خبر طويل في تاريخ الوزير السراج المعروف بالحلل السندسية في الأخبار التونسية . ذلك أن آل بيت الفقيد أصلهم من الأندلس خرج منها جدّهم فارّا بدينه إلى سلا من بلدان المغرب ومنها انتقل لحاضرة تونس وبها استقرّ .

وقد أنجبت هذه الأسرة مشائخ أعلاما كالشيخ أحمد ابن عاشور المتوفّي سنة 1839 ، والشيخ محمد ابن عاشور المتوفّي سنة 1849 ، وجدّ الفقيد وسميّه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور المتوفّي سنة 1868 ، وابن الفقيد الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور المتوفّي سنة 1970 . وكان لجميعهم مساهمة أثروا بها اثراء ملحوظا للثقافة العربية الاسلامية الأصيلة .

وقد كانت ثقافة الفقيد ثقافة رجل من أهل القرن التاسع عشر مكنته فسحة العمر المديد من فرصة الاتصال بمفاهيم القرن العشرين . ونحن إذا أردنا كنه اتجاهاته الثقافية لا مناص لنا من استحضار تاريخ جامع الزيتونة في بحر قرن بأكمله فالفقيد من خريجه به أحرز شهادة التطويع سنة 1899 وبه جلس للتدريس من الطبقة الأولى سنة 1903 . وعيّن نائبا أول عن الحكومة لدى نظارة الجامع سنة 1907 وأصبح عضوا في هذه النظارة منذ سنة 1913 وسمّي شيخا لجامع الزيتونة سنة 1932 واستقال من منصبه هذا بعد سنتين ورجع لرئاسة المشيخة من سنة 1944 إلى سنة 1951 وعاد لمباشرة الخطّة في عهد الاستقلال من سنة 1956 إلى سنة 1960 وهو تاريخ ظهور الأمر المؤسس للجامعة التونسية التي أصبحت الكليّة الزيتونية للشرعة وأصول الدين إحدى خلاياها (أمر 31 مارس سنة 1960 المنقّح بأمر غرة مارس سنة 1961) فتقلّد منصب عمادتها ابنه المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور .

وأبرز أعمال سماحة الأستاذ المرحوم محمد الطاهر ابن عاشور هي تلك التي قام بها على رأس جامع الزيتونة عاملا بما عرف به من حزم وجدّ على

مساعدة الحوار بين الاسلام والعالم المعاصر فأسهم متفانيا مدة نصف قرن بنشاط خصب في جميع المبادرات الرامية إلى تنظيم هياكل التعليم الزيتوني وتديبر برامجه قصد النهوض به وتطويره .

وقد تناول الفقيه وضع هذا التعليم في كتاب شرع في تحريره منذ سنة 1903 وأتمه سنة 1910 ولم يظهره للناس الا سنة 1967 اذ قد حالت دون اصداره سنة إتمامه موانع جمة ان لم يذكرها سماحته فتأريء الكتاب يستشفها من الآية القرآنية التي ورد الكتاب معنونا بها وهي قوله تعالى : أليس الصبح بقريب (سورة هود ، الآية 81) هذه الآية هي رجاء لزوال ظلام مدلهتهم خيم على التعليم الزيتوني وهي دعاء لانبلاج صبح الاصلاح خاصة وأن الفقيه كان له في مدة قيامه بالتدريس بالمدرسة الصادقية اتصال بتلامذة من غير صنف تلامذة جامع الزيتونة فكان له في تكوين أولئك تأثير تمثل في الذود عن الدين والحفاظ على اللغة القومية والابقاء للصلة المتينة بالتراث العربي الاسلامي .

وقد ألّف الفقيه كتباً ورسائل كثيرة لم يزل منها ما لم يطبع كشرحه لموطأ الامام مالك . ومن أبرز مؤلفات الفقيه تفسير القرآن المسمى بتفسير التحرير والتنوير وهو تفسير في ثلاثين جزءاً في نحو سبعة آلاف صفحة طبعت منه عشرة أجزاء . وهذا العمل العلمي العظيم هو ثمرة العزيمة الثابتة والمقدرة العجيبة على العمل .

وقد عدّ سماحة الأستاذ التفسير علماً لما رآه معدوداً عند السلف في مقدمة العلوم لأنه منبع العلوم الشرعية فرأى ، رحمه الله ، لأسباب تأخر علم التفسير أثراً قوياً في تأخر كثير من العلوم الاسلامية خصوصاً الفقه والنحو واللغة فأحب أن يتابع السلف في عده علماً ولكنه نهجاً فيه غير منحاهم وتجنب جعل مفادات مفردات القرآن وتراكيبه منافذ يخرج منها إلى أغراض دعائية أو مذهبية أو حزبية .

وقد كان لسماحته في مختلف الخطط التي وليها منذ انخراطه في هيئة القضاء ابتداء من سنة 1911 نشاط ملحوظ نترك تفصيل الحديث عنه إلى أهل الاختصاص من رجال الحقوق ونقتصر على التذكير بأن الفقيه ولي خطة قاضي القضاة المالكية سنة 1913 وسمّي مفتيا مالكيًا سنة 1923 ونائب باش مفتي سنة 1925 وباش مفتي سنة 1927 ومستشار الحكومة في الشؤون الدينية وشيخ الاسلام المالكي سنة 1932 .

وكان من نشاط سماحته أيضا أن ساهم في مجال الأدب مساهمة جليلة فنشر كثيرا من البحوث والدراسات نذكر منها مقالاته في مجلة السعادة العظمى سنة 1902 وشرحه لتقصيدة الأعشى الأكبر وتحقيقه للقطعة الموجودة من ديوان بشار بن برد الواقعة في ثلاثة أجزاء وقد ألحق بها الشواهد الشعرية المنسوبة لبشار بن برد والمفرقة بين كتب الأدب والعربية بعد أن جمعها وبذل الجهد في تحقيق نسبتها وبذلك يتكوّن الجزء الرابع من ديوان بشار الذي أسماه متفرقات .

وللفقيه رسالة في أصول الانشاء والخطابة وموجز في البلاغة ومقدمة أدبية موضوعها تحقيق مقدمة المرزوقي لشرح ديوان أبي تمام وفيها أعرب عن أنظاره النقدية وأذواقه الأدبية الأصيلة المركزة القائمة على مناهج الأسلاف المتبحرين في اللغة والأدب . وتقديرا لهذا التبحر في علوم الدين واللغة والأدب انتخب الفقيه عضوا مراسلا للمجمع اللغوي بالقاهرة سنة 1940 وعضوا مراسلا للمجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1955 .

وقد عالج الفقيه قضايا الفكر الاسلامي معالجة شاهدة على أن الاجتهاد كان ديدنه والاصلاح هدفه وهو ما يظهر جليا في ما ترك من الكتب والمقالات ومن بينها كتاب مقاصد الشريعة الاسلامية ، طبع بتونس سنة 1958 ، وكتاب أصول النظام الاجتماعي في الاسلام ، طبع بتونس سنة

1964، وله سيرة الرسول، صلعم، مطبوعة بتونس. وله حاشية على التنقيح لشهاب الدين أحمد القرافي.

فممنزلة الفقيه سماحة الأستاذ الشيخ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور على صعيد الفكر تتمثل في متانة علمه ورسوخ قدمه في الشريعة الإسلامية والآداب العربية مع توقّد ذهن ونفاذ بصيرة وعلاج لمشاكل الساعة يخضعها لحصافة رأيه وقدرة استنباطه للأحكام والنظريات استمداداً من القرآن والسنة وتطبيقها على شواهد الحال لذلك عرف الفقيه بمبادرته وآرائه الصريحة القويّة كما لمع بين عامّة رجال الثقافة الإسلامية في جميع أقطار العالم فكانت الرسائل تظراً عليه مستفهمة أو مستفتية وله في ذلك أجوبة كثيرة ما تزال محفوظة بأقلام أصحابها في سجلاته الخاصّة نرجو أن لا يغمرها النسيان وأن لا يستأثر بها من أسعفتهم الصدفة بالظفر بها، حتى يستفيد منها الباحثون.

وبهوته، رحمه الله، فقد العالم الإسلامي شخصية عجيبة لامعة جمعت بين التقوى والمعرفة وبعد النظر والاجتهاد بحيث كان معدوداً بحق من بتميّة السلف الصالح.

علي الشنّوفي